المحاضرة 09:إقليم توات ودوره في ربط الجزائر بالسودان الغربي

1-التعريف بالإقليم التواتي:

لقد اختلف المؤرخون في شأن تسمية الإقليم بهذا الاسم بل وحتى مؤرخي المنطقة أنفسهم يطرحون ذلك التضارب في مخطوطاتهم فمنهم من يجعل لها إسقاطات تناسب رأي معين ومنهم ما ينفيه ، لذلك سنحاول أن نجمع الاختلاف ونصبّه في مردّ واحد هو اشتقاق المعنى من أصله اللغوي الذي يحمل دلالات مختلفة حسب اللغةالأم سواءً عربية أو أعجمية ، بربرية أو تكرورية.

مثلا يورد الرصاع في فهرسته أن أصل الكلمة يعود لاسم القبيلة التي استقرت بالمنطقة قائلا : "...والملثمون هم قبائل الصحراء بالجنوب عرفوا بهذا الاسم لأنهم يتلثمون بلثام أزرق ومنهم طوائف الطوارق ، ولمتة ، ولمتونة والتوات ... ". ويذكر محمد بن مبارك في مخطوطه حينما يرجعها إلى أصلها البربري نسبة لقبائل لمتونة التي وصلت في القرن الثاني عشر ميلادي فوجدوها تناسب الاستقرار ، أما عبد الرحمن السعدي فيقول أن اسم توات تعني باللغة التكرورية مرض يصيب الرجل وقد أصاب رجال الملك منسى موسى وهو قاصد بيت الله الحرام وقد أصيبوا في توات فتسمت المنطقة باسم العلة ويرى المؤرخون الأجانب أن أصل التسمية مردّها بربري تارةً وتارة أخرى من اللغة الإغريقية التي تعني الواحة (OASIS) حيث يرى المؤرخ إليزي روكليس "Elisée reclus" أنها كلمة بربرية (وا- OUA) وهو جمع مفرد توات " TOUT" بمعنى الواحة .

لذلك يمكن أن نجمع أصل التسمية في مردّين إثنين واحد إلى اللغة البربرية والثاني الى اللغة العربية من فعل واتى يواتي ،أو من اسم الأتوات ، لكن المنطق يقول أن من عمَّر المنطقة أولا هم البربر فلا بد أن تسمى المنطقة بلغتهم كما تم تسمية المناطق الأخرى وكما نجد أغلب المناطق تبدء بالتاء مثل : تسابيت-تيدكلت-تيكورارين-تمنطيط-تيلكوزة...الخ. ولا يمكن لهذه القبائل أن تسكن دون أن تسمي تلك الأماكن .

2-الحيز الجغرافي للإقليم :

هو أيضا أختلف فيه المؤرخون سواء منهم الرحالة أو أصحاب المنطقة بحث يمتد قطر الإقليم تارة وينحصر تارة أخرى ، يذكر الرحالة الجغرافي **ابن بطوطة** وقد اعتبر أقدم من زار المنطقة أثناء عودته من **مالي** سنة 754 هـ ، بحيث يقول : **"...وقصدت السفراء إلى توات ورفعت زاد سبعين ليلة إذ لا يوجد الطعام بين تكدا وتوات ودخلنا بودة وهي أكبر قصور توات وأرضها رمال وسيخة وتمرها كثير ليس بطيب لكن أهلها يفضلونه على تمر سجلماسة...".**

1. ثم يذكرها الفشتالي في كتابه مناهل الصفا "... **هذا الإقليم المفروغ غلى قطر توات وهو أوسع وطنا وأفسح مجالا وأقرب للسودان اتصالا وجوارا ، والى قطر تكورارين وهو أعظم الأقاليم اشتهارا وأعرف نقيبا وأشد شوكة ... اتصلت نخيله وتراصفت قصوره على مسافة ثلاثين مرحلة أو أكثر..."**[13] ، اما محمد بن عبد الكريم فيقول :"... **توات هي صحراء في أعلى المغرب ذات نخيل وأشجار وعيون بينها وبين سجلماسة ثلاثة عشر يوما ومن بلاد الزاب عشرة أيام شرقا ومن ناحية أولاد عيسى إسراعا لبلاد الأبيض سيدي الشيخ ...".**(عبد الكريم،البكراوي،درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام،مخطوط بالخزانة البكرية،تمنطيط،ص1.)
2. أما أحمد القيسي السراج فيفضل بين توات وتيدلكت بجعله رقان هي آخر مجموعة لحدود توات من الجنوب ، أما أبوسالم العياشي فيذكر توات بدقة محددا مدخلها بقرى تسابيت قائلا "...**ودخلنا اوّل عمالة توات ، وهي قرى تسابيت ، وزرنا أول قرية منها قبل الولي الصالح سيدي محمد بن الصالح المعروف بعريان الرأس ، وأقمنا بها ستة أيام ...**" (ينظر، أبو سالم العياشي ، رحلة العياشي، ماء الموائد، تح:محمد حاجي،ج1،ط1،مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر ، االرباط،1397ه/1977م،ص20.).

3-إقليم توات وبوادر التفاعل الثقافي :

لقد شكل إقليم توات الواقع في قلب الصحراء عاملا مهماً في سلسلة التغيرات السياسية والإقتصادية ، الإجتماعية والثقافية وبالتالي التحول الحضاري للإقليم شيئًا فشيئًا ، بحيث يعتبر موقع توات معبرا حتميا للقوافل التجارية الررابطة بين الشمال والجنوب وبين الشرق والغرب ، فأصبحت تلعب دور الوسيط التجاري بين هذه الأمصار ممّا أكسبها حركية متفاعلة إلى غاية القرن السابع الهجري أين شهدت هذه المرحلة سقوط غانا وتحول المعابر التجارية وانتقالها من سجلماسة إلى توات ومنها إلى تمبكت .

اعتبرت تنبكت حاضرة إفريقية تجارية و ثقافية ساهمت في ربط العلاقات بين السودان الغربي وإقليم توات ،هذه الحركيةزادت في التعريف بالإقليم أكثر ؛فأصبح يشكل قِبلة للزهاد ، لطلبة العلم ، للفارين والمضطهدين ، لأنه مركز أمان وهو أيضا بعيدا عن نزوات السلاطين ، رغم ما عرفته توات من تبعية وإخضاع من قبل ملوك المغرب الأقصى،المرينيون والسعديون.

ولقد ذكر ابن خلدون توات أنها ممر حتمي تسلكه القوافل التجارية القادمة من "مالي" ، ثم يذكر العياشي في رحلته-ماء الموائد- أن الكثير من الحجاج المارين بالإقليم كانوا يفضلون تبديل الصرف في توات لأن الذهب فيها أرخص وكذلك سعر القوت والتمر والزرع وأن هذه البلدة هي مجمع القوافل.

وإضافة إلى الطريق العمودي كان هناك طريقا أفقيا يعمل على تنشيط الحركة الإقتصادية والعلمية وهو طريق ركاب الحجيج من شنقيط وسجلماسة إلى توات ومنها إلى طرابلس ومصر ، وهذه الرحلة الحجازية كان لها محطات عبور ومحطات أخرى للتوقف ، وكثير من تلك المراكز موجودة في الإقليم بحكم اتساع مساحته نذكر منها : تمنطيط ، تسابيت ، تيمى وعين صالح ...